المصدر: الخليج

التاريخ: ٦ مارس ٢٠٠٥

انتفاضة بيروت قد تتكرر في دول مجاورة

إذا كانت الاغتيالات تسرّع في بعض الأحيان حركة التاريخ، فلا شك أن اغتيال رفيق الحريري الوحشي الذي وحّد الشعب يُعد واحداً من تلك الاغتيالات

ديفيد هيرست

ثورة مخملية، على الطريقة الأوكرانية، ستضرب مثلاً يُحتذى لمنطقة الشرق الأوسط برمتها. هكذا يحلو لانتفاضة لبنان الديمقراطية السلمية، إلى الآن، أن ترى نفسها. ومن المؤكد أن شيئاً جديداً وعميقاً يجري. فقد تجسدت قوة لبنان وضعفه دائماً في تعدد طوائفه الدينية التي يستند إليها نظامه السياسي. وعندما نجح ذلك النظام، نجح على نحو فاق نجاح جميع الدول المجاورة. وعندما انهار، انهار على نحو كارثي. وخلال الحرب الأهلية اللبنانية التي دامت لمدة 16 عاماً حذر الزعيم وليد جنبلاط - الذي يقود المعارضة حالياً - العرب الذين تدخلوا في شؤون لبنان في تلك الفترة من أن «النار ستصل إليكم يوماً ما». ولكن ذلك لم يحدث. وأما الانتفاضة التي يقودها حالياً فربما تمتد الى تلك الدول.

إن ما يجري على كل حال هو انتصار على الطائفية، وهو ليس بالانتصار الكامل وليس بالانتصار المنيع. وبفضل حزب الله، المدعوم من سوريا والمتمتع بالشعبية داخلياً، يلتزم شيعة لبنان بالتحفظ. ويقف الناس جميعاً الآن في خندق واحد، ويقف النظام في خندق آخر ويمثل هذا الوضع - وليس العداء الطائفي - العامل الذي سيحدد على نحو رئيسي سير الأحداث.

وإذا كانت الاغتيالات تسرّع في بعض الأحيان حركة التاريخ، فلا شك أن اغتيال رفيق الحريري الوحشي الذي وحّد الشعب يُعد واحداً من تلك الاغتيالات. ولا يصدق كثير من السوريين أن حكومتهم لعبت دوراً في حادثة اغتيال الحريري، ويؤكدون أن حكومة دمشق لا يمكن أن تكون غبية الى ذلك الحد. ولكن، وسواء كان الأمر مؤامرة جهنمية أو جرحاً هائلاً نتج عن فعل ذاتي، فالنتيجة واحدة. وبالنسبة للبنانيين، يُعدّ السوريون مذنبين حتى يثبتوا العكس، إذ يرى اللبنانيون أن الكيل قد طفح. ومن الواضح أن حادثة الاغتيال أطلقت العنان لجميع مشاعر العداء لسوريا التي ظلت تعتمل خفية على مدى السنوات الماضية. ويقول مفكر سوري معارض متحسراً: «أشقاؤنا اللبنانيون يجاهرون بكراهيتهم لنا. وحكومتنا لم تستشرنا أبداً قبل 29 عاماً عندما خطت الخطوة المشؤومة بدخول لبنان، ولن تستشيرنا عندما تخرج من لبنان. ويجب عليها أن تخرج».

ولكن الخروج من لبنان هو بالتحديد الأمر الذي يُرجح أن يقاومه النظام البعثي السوري حتى النهاية، وذلك لأنه يخشى، إن فعل، أن يكون في ذلك نهايته أيضاً. ويقول سوري معارض آخر: «إن الهزيمة الكلية في لبنان تعني هزيمة كلية في الداخل».

أولاً: لأن لبنان هو مصدر القوة

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الاستراتيجي الثمين لسوريا. ولأسباب تاريخية وجغرافية وسياسية تسعى سوريا جاهدة لتكون قوة اقليمية أكبر مما تسمح به مواردها الخاصة. وحالياً، وفي لبنان الذي تسيطر عليه سوريا، توجد آخر الأوراق الرئيسية، كورقة حزب الله، في يد اقليمية تتآكل منذ فترة طويلة، وهي أوراق يحاول حكام سوريا الحاليون من خلالها تأمين بقائهم في نظام شرق أوسطي جديد يهيمن عليه الأمريكيون. وربما تكون ورقتهم الرابحة الأخيرة هي التهديد بالانسحاب ذاته. إذ إنهم إذا فعلوا ذلك، وكما أوضح قائد استخباراتي في إحدى المرات، سيتحول لبنان الى مرتع خصب لتشكيلة من المقاتلين الاسلاميين والفلسطينيين وغيرهم. وباختصار، سيتحول الى عراق آخر، وسيسارع الأمريكيون و«الاسرائيليون» الى توجيه رجاءات للسوريين للعودة الى لبنان.

وثانياً: هناك احتمال حدوث تأثير «الدومينو» داخل سوريا ذاتها ووقوع انتفاضة مماثلة لانتفاضة «قوة الشعب اللبنانية». وبعد تجربة الانتخابات في العراق وفلسطين - بصرف النظر عن كونها معيبة أم لا - جاء هذا الاندلاع الجديد وغير المنتظر للتأكيد الذاتي الشعبي من بلد تتولى فيه دولة عربية شقيقة وليس قوة محتلة أجنبية مقاليد الأمور. وعلى الرغم من أن هذه الانتفاضة الأصيلة تحظى بتشجيع كبير حالياً من أمريكا والغرب إلا أنها لم تكن وليدة تدبير أمريكي أو غربي.

وتعتبر الانتفاضة الشعبية اللبنانية ضربة لكل الذي جسدته سوريا ودافعت عنه بصفتها «قلب العروبة النابض» ومركز القومية العربية والبعث.

ولن ينتفض السوريون كما فعل اللبنانيون - ليس الآن على الأقل - ونظراً لخضوع السوريين لقمع استمر سنوات طويلة فإنهم لا يملكون المعارضة المنظمة والبقية القوية من التقاليد الديمقراطية التي تقيدها تدريجياً «سورنة لبنان». وما قام به لبنان هو إضافة بعد جديد تماماً للسخط الشعبي وجميع الويلات المحلية المتراكمة منذ فترة طويلة ونتجت عن نظام حكم مهترئ ومتحجر وعتيق احتمله الشعب - باستثناء فترات تخفيف طفيفة جرت مؤخراً - على مدى الأربعين عاماً الماضية. وقد أضافت انتفاضة الشعب اللبناني الى الضغوط المطالبة بالاصلاح والدمقرطة، وهو إصلاح يمثل الطريق الوحيد الذي يمكن للنظام أن يأمل من خلاله في البقاء بشكل من الأشكال. وبالنسبة لسوريا، يمثل لبنان جاراً حميماً الى حد أن ما يحدث في لبنان لن يُعد موضوعاً «أجنبياً» بالمرة. ويعرف الجميع أن الذين يعوقون الاصلاح في سوريا - أو ما يسمّون «بالحرس القديم» وهي مراكز قوى غامضة في الجيش وأجهزة الاستخبارات - هم أنفسهم الذين أوصلوا الوجود السوري في لبنان الى مأزقه الحالي.

وهو مأزق أصبح أكثر خطورة لأن «الانتفاضة» اللبنانية تتوافق بشكل جيد مع حملة الرئيس الأمريكي جورج بوش لتحقيق «الحرية والديمقراطية» في الشرق الأوسط، ناهيك عن حقيقة أن سوريا ظلت ومنذ فترة طويلة هدفاً لمخططات صقور المحافظين الجدد الموالين لـ «اسرائيل» داخل الإدارة الأمريكية في ما يتعلق «بتغيير الأنظمة» في الشرق الأوسط، وما كان يمكن لقتلة الحريري أن يقدموا لهم خدمة أكبر مما قدموه لهم.

وماذا بعد الآن، بالنسبة لنظام يتعرض لهزة كبيرة، هل ينبغي عليه أن ينفذ انسحاباً مشرفاً قدر الإمكان، أم يجب عليه أن يمضي قدماً الى مزيد من التحدي للمعارضة اللبنانية وأصدقائها الدوليين؟ لا شك في أن الأمر يبدو للرئيس بشار الأسد خياراً بين أمرين أحلاهما مر. وقد ألمح الأسد الى انسحاب سوري من لبنان خلال شهور قليلة، وهو ما لا يتوافق مع مطلب المعارضة التي تريد انسحاباً فورياً. وقال الأسد إن ذلك الانسحاب ذاته سيتوقف على ما يحدث في لبنان. ولكن الذي يحدث في لبنان يتوقف كثيراً على ما تفعله سوريا أو تفعله مراكز القوى التي ربما تكون خارج سيطرة الرئاسة السورية. فهل تكون ورقتهم الرابحة عراقاً آخر؟

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية